أبــو البقــاء الرُّنــدي

(601–684هـ)

هو صالحُ بْنُ يَزيدَ بْنِ صالِحِ بْنِ موسى بْنِ شَرِيفٍ ... الرُّنْديُّ الأندلسيُّ. وكان يُعرفُ بكُنْيتين، هما: أبو البقاء، وأبو الطيّب.

والرُّنْدي (بضمّ الرّاء) نسبةً إلى مدينة "رُنْدة" في جنوبي الأندلس، التي وُلِدَ فيها سنة (601هـ). وهي مدينة حصينةٌ، وبقيَتْ من مدن الإسلام في الأندلس إلى أواخر أيامه، وتوفي سنة (684هـ).

تلقّى علومه في رُنْدة، وقضى معظم أيامه فيها، وأخذ عن والده، وعددٍ من علماءِ عصره وأُدبائه، وتنقّل في الدّيار الأندلسيّة، كما كانَتْ له رحلاتٌ إلى المغرب.

واتّصل ببلاط بني نصر (بني الأحمر) في غرناطةَ، وكان يَفِدُ عليهم، ويمدحُهُمْ، وينالُ جوائزهم. وكان يُفيد، حيث يدخل غرناطةَ، من مجالسِ علمائها، ومن الاختلاط بأدبائها، كما كان يُنشدهم من شعره، أيضاً.

مصادر الدراسة ومراجعها:

1. المقّري؛ أحمد بن محمد: نفح الطيّب من غصن الأندلس الرّطيب، تحقيق د. إحسان عباس، الجزء الرابع.
2. محمد رضوان الدّاية: أبو البقاء الرّندي شاعر رثاء الأندلس، دار سعد الدين، دمشق، د.ت.

جمع الرُّنديُّ المعارفَ الإسلاميةَ: الفقهَ والأصولَ والفرائضَ وعلمَ الحديث، إلى المعارف الأدبية، فكان شاعراً، وكاتباً، وناقداً، وكان شخصيّةً مرموقةً في عصره، عِلْماً، وأدباً وشعراً، واشتُهر أمْرُهُ في الأندلس والمغرب.

نَظَمَ في المدح، والغزل، والرّثاء، ووصْفِ الطبيعة، ويُعَدّ من تلاميذِ المدرسةِ الخفاجيّةِ، التي بالغَتْ في وَصْفِ الطبيعة الأندلسية السّاحرةِ، واعتمدتْ على التصوير الفنيّ.

أبو البقاء الرُّندي يرثي الأندلس

(1) لكلّ شَيْء – إذا مـا تَـمّ – نُقصانُ	فلا يُغـرَّ – بطيـبِ العَيْشِ – إنسانُ
(2) هي الأمورُ – كما شاهَدْتَهـا – دُوَلٌ	مَـنْ سَـرّهُ زَمَـنٌ ساءَتْـهُ أزمانُ
(3) وهـذه الدّارُ لا تُبقـي على أَحَـدٍ	ولا يـدومُ – على حالٍ – لها شـانُ
(4) يُمَـزّقُ الدّهْرُ – حتْما – كُلّ سابغةٍ	إذا نَبَـتْ مشرفيّـاتٌ وخُرصـانُ
(5) وينتضي كُلَّ سَيْفٍ للفنـاء ولَـوْ	كان ابنُ ذي يَـزَنٍ والغِمْـدُ غُمدانُ

(1)

(2) دال الزمان: انقلب من حال إلى حال؛ والدول: جمع الدولة، وهي انقلاب الزمان.

(3)

(4) السابغة: الدرع الكاملة. والمشرفيات: السيوف المنسوبة إلى المشارف، وهي مشارف العراق والشام: قرى من أرض العرب من الريف. والخرصان: جمع الخرص، وهي الرمح.

(5) انتضى السيف: أخرجه من غمده، وسيف بن ذي يزن: من ملوك اليمن؛ وغمدان: قصر كان له.

(6) أيْنَ الملــوكُ ذَوو التّيجانِ مِنْ يَمَنٍ؟ وأَيْــنَ منْهــم أكاليــلٌ وتيجـــانُ؟

(7) وأيْنَ مـــا شـــادَهُ شدّادُ في إِرَمٍ؟ وأَيْنَ ما ساسَهُ –في الفُرْسِ– ساسانُ؟

(8) وأَيْنَ ما حـــازَهُ قارونُ من ذَهَــبٍ؟ وأَيْنَ عـــادٌ وشـــدّادٌ وقحطـــانُ؟

(9) أتى على الكُــلّ أمــرٌ لا مَــرَدَّ لــه حتّى قَضَــوْا فكأنّ القَوْمَ ما كانــوا

(10) وصارَ ما كـــان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ كما حكى عن خَيــالِ الطيّفِ وَسْنانُ

(11) دار الزمـــانُ على دارا وقاتِلِــهِ وَأَمَّ كســـــرى فمـــــا آواه إيـــــوانُ

(12) كأنّما الصّعْبُ لم يَسْهُلْ لَهُ سَبَــبٌ يَوْمــا ولا مَلَــكَ الدنيــا سُليمـــــانُ

(13) فجائــعُ الدّهــر أنــواعٌ مُنوّعَـــــةٌ وللزمـــــانِ مَسَـــــراتٌ وأَحـــــزانُ

(14) وللحــوادثِ سُلــوانٌ يُسَهّلهـــــا وما لِمــا حَلّ بالإســلام سُلْــوانُ

---

(6)

(7) ذكر البكري أنه " وجد بالاسكندرية حجر نقش فيه: أنا شداد بن عاد الذي نصب العماد ..." معجم ما استعجم 408/2؛ وذكر البكري عدداً من الأقوال في المقصود بـــ (إرم) في كلام العرب، منها أنها: دمشق، والاسكندرية. وساسان: أبو طائفة عظيمة من ملوك الفرس.

(8) قارون: يضرب به المثل في كثرة المال وعظيم الكنوز، ذكره الله تعالى في سورة القصص. وعاد: أبو رهط من العرب البائدة.

(9)

(10)

(11) دارا الأصغر بن دارا الأكبر، قتله أصحابه في معركته مع الاسكندر المكدوني (الكامل في التاريخ 282/1)، والإيوان: هو إيوان كسرى الذي بالمدائن، مدائن كسرى. وأَمَّهُ الموت: قصده.

(12) الصعب: أحد تبابِعَةِ اليمن.

(13)

(14) السلوان: النسيان.

(15) دَهَــى الجزيرةَ أَمْرٌ لا عَــزاءَ لَهُ هَــوى لــه أُحُــدٌ وانْهــدّ ثَهْــلانُ

(16) أصابَها العَيْــنُ في الإسلام فارتزأتْ حتّى خَلَــتْ منــه أقطــارٌ وبُلْــدانُ

(17) فاسْــأَلْ بلنسيــةً مــا شَــأْنُ مُرْسِيَةٍ وأيــنَ شاطِبَــةٌ أم أَيْــنَ جَيّــان؟

(18) وأيــنَ قرطبــةٌ دارُ العلوم فَكَــمْ مِنْ عالمٍ قدْ سَمــا فيهــا لَــهُ شأنُ؟

(19) وأينَ حِمْصٌ وما تحويــه من نُــزَهٍ ونهرُهــا العَذْبُ فيّــاضٌ ومــلآنُ؟

(20) قواعــدٌ كُــنَّ أركــانَ البــلادِ فما عسى البقــاءُ إذا لــم تَبْــقَ أركــانُ

(21) تبكــي الحنيفيــةُ البيضاءُ مِنْ أَسَفٍ كما بَكــى لفــراق الإلْــفِ هَيْمــانُ

(22) على ديــارٍ من الإســلام خاليــةٍ قــد أَقْفَــرَتْ ولها بالكُفْــرِ عُمــرانُ

(23) حيثُ المساجدُ قدْ صارتْ كنائسَ ما فيهــن إلاّ نواقيــسٌ وصُلبــانُ

(24) حتّى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ حتّى المنابــرُ تُرثــى وهــي عيدانُ

---

(15) أُحُد: جبل مشهور قريب من المدينة. وثهلان: جبل باليمن.

(16) ارتزأت: أصيبت بالرزية، وهي المصيبة.

(17)

(18)

(19) حمص هي مدينة إشبيلية، سمّاها الأندلسيّون باسم حمص التي في بلاد الشام، لأنّ جند حمص ممّن نزلوا الأندلس استقرّوا في إشبيلية.

(20)

(21)

(22)

(23)

(24) العيدان: جمع العود، وهو الغصن بعد أن يقطع، والخشب، تتخذ منها المنابر.

[25] يا غافــلا ولَهُ في الدّهْر موعظــةٌ إنْ كنــتَ في سِنَــةٍ فالدّهــرُ يقظانُ

[26] وماشِيــا مَرِحــاً يُلهيــه مَوْطِنُــهُ أبَعْدَ حِمْــصٍ تَغُــرُّ المَــرْءَ أوطانُ؟

[27] تلْكَ المُصيبةُ أنْسَــتْ مــا تقدّمهــا وما لَها – من طِوالِ الدّهْرِ – نِسيانُ

[28] يا راكبينَ عِتــاقِ الخَيْــلِ ضامرةً كأنّها – في مجال السّبْق – عِقْبــانُ

[29] وحامليــنَ سُيــوفَ الهِنْــدِ مُرْهفــةً كأنّها فــي ظــلام النّقْــع نيــرانُ

[30] وراتعيــنَ – وراءَ البَحْرِ – في دَعِةٍ لَهُمْ بأوطانهم عِــــزٌّ وسلطــــانُ

[31] أعندَكُمْ نبأٌ مــن أهــل أندلــس؟ فقد سَرَى بحديــث القَــوْمِ رُكبــانُ

[32] كَمْ يستغيثُ بنا المستضعفونَ وَهُمْ قتلى وأسرى فمــا يهتــزُّ إنســانُ؟

[33] ماذا التقاطُعُ في الإسلام بينكم؟ وأنتــمُ – يــا عِبــادَ الله – إخــوانُ

[34] ألا نفــوسٌ أبيّــاتٌ لهــا هِمَــمٌ أما على الخَيْــرِ أنصــارٌ وأعوانُ؟

---

(25)

(26)

(27)

(28) عقبان جمع عُقاب (الطائر الكاسر المعروف).

(29) النقع: الغبار. يريد وهج المعركة واغبرار الجوّ من احتدامها.

(30) البحر هنا مضيق جبل طارق (همزة الوصل بين الأندلس والمغرب).

(31)

(32)

(33)

(34)

(35) يا مــنْ لِذِلّــةِ قَــوْمٍ بعــدَ عزّهــمُ كأنّهم – وَهُــمُ الأحــرارُ – عُبْــدانُ

(36) بالأمس كانوا مُلوكا في مَنازلهــمْ واليومَ هُمْ – في بلاد الكُفْر – عُبْدانُ

(37) فَلَوْ تَراهُم حَيارى لا دَليــلَ لَهُــمْ عليهمُ – مــن ثيــابِ الذُلّ – ألوانُ

(38) وَلَوْ رأَيْتَ بُكاهــم عنــدَ بيعِهــم لَهالَكَ الأمْــرُ واسْتَهوتْــكَ أحــزانُ

(39) يا رُبَّ أمٍّ وطِفْــلٍ حِيــلَ بَيْنَهُمــا كمــا تفــرّقَ أرواحٌ وأبــدانُ

(40) وطَفْلَةٍ مثْلِ حُسْنِ الشّمسِ إِذْ طلعتْ كأنّمــا هــي ياقــوتٌ ومَرْجــانُ

(41) يقودهــا العِلْــجُ للمكــروهِ مُكْرَهَةً والعَيْــنُ باكيــةٌ والقلــبُ حَيْــرانُ

(42) لمثــلِ هذا يــذوبُ القلــبُ من كَمَدٍ إنْ كان في القلــب إســلامٌ وإيمــانُ

---

(35) أحال: غيّر وبَدّل.

(36) عُبْدان: كلمة عَبْد تُجمع على عبيد وعبدان، وغيرهما أيضاً.

(37)

(38)

(39)

(40) الطّفْلَةُ (بفتح الطاء) الفناة الرَّخْصة الناعمة (من معالم الحسن والجمال).
– ما رأتها الشمس: لأنها مصونة مكنونة.

(41) من معاني العِلج: الرّجل الضخم من أهل العجم. وهي كلمة تحقير.

(42)

دراسةُ القصيدةِ وتحليلُها

عاصر أبو البقاء الرُّنديُّ انهيارَ دولة الموحّدين (في المغرب والأندلس) وتهاويَ المجدِ الأندلسيّ، وضياعَ بلدانٍ ومناطقَ وحُصونٍ كثيرةٍ عظيمةٍ، وعاصر أيضاً ظُهورَ دولة بني الأحمر سنة 635، وشهد تنازلَ أميرِ غرناطةَ عن عدد من الحصون والقلاع والبلدان تبلغ نحو خمسين مرة واحدة نتيجة ضغوط تحالف الدّول المعادية (إسبانية والبرتغال والدول الأوروبية المساعدة لها) وآلمتْهُ هذه الحالُ الصعبةُ التي آلَ إليها الوجودُ العربيُّ الإسلاميُّ في الأندلس المجاهدةِ الجريحِ، فقال داعياً إلى الجهاد، طالباً النصرة، واصفاً الحال...

لقد اختار أبو البقاء الرُّنديُّ أن ينظمَ قصيدته على البحر البسيط، وهو بحرٌ كثيرُ الشّيوع والاستعمال لدى الشعراء العرب. ويحتلّ المرتبةَ الثانيةَ بعد البحر الطويل. فاختيارُ أبي البقاءِ الرُّنديّ هذا البحرَ بَدا مناسباً بإيقاعه الهادئ الرّصين لشفافيةِ الأسى المنسابِ في هذه القصيدةِ البكائية.

لم يقتصرْ حرصُ أبي البقاء على اختيار الموسيقى الخارجيةِ المتمثلةِ في البحر البسيط فقط، بَلْ سَعَى إلى اختيار الإيقاع الداخليّ، والموسيقى الداخليّة لإظهار مُناخه النفسيّ، ويبدأ هذا الإيقاعُ الحزينُ مَعَ بداياتِ هذه القصيدةِ النونيّة.

وزاد من نغمة الحزنِ هذه المقاطعُ الطّويلةُ المكوّنةُ من (ص ح ح)، ونجدُ المقاطعَ الطويلةَ في البيت الأول على سبيل المثال: (ذا، ما، صا، نو، لا، طيـــ، سا، نو) ففي هذه المقاطعِ امتدادٌ للصّوْتِ يصوّر آهاتِ الشاعرِ المكلومةَ.

وفي البيت الثاني، على سبيل المثال أيضاً، "هي الأمور كما شاهدتها دول" نجد فيه مقاطعَ طويلةً تعكس امتدادَ الصّوْت والنّفس، واستطالةَ الآهاتِ: (مو، ما، شا، ها، هو، سا، ما، نو).

واستهلّ الشّاعرُ قصيدتَهُ بخطاب للذّاكرة الجماعيّة لاستخلاص العِبَرِ من ماضٍ ذاهب، عاش فتراتٍ من المجد والإشعاع ولحظاتٍ من الخبوّ والخُفوت. وقد هَيْمَنَتْ على الشاعر إحساساتٌ مأساويةٌ فعبّر تعبيراً زاهداً في طيب العيش الذي لا داوم له.

وضَرَبَ الشاعرُ الأمثالَ ممّن كانوا في الأرض ذوي بأسٍ وقُوّة، فإذا هُمْ خَبَرٌ من الأخبار، كسيف بن ذي يَزَنَ، وأذواءِ اليمن (ملوكهم)، وشدّادِ صاحبِ إرَم، وساسانَ، وهو أحد ملوك الفرس العظام، وقال الشاعر: كلّ هؤلاء وأمثالُهم جاءهم أمرٌ لا مردّ له، وهو (الموت والتلاشي)، فصاروا أثراً بعد عَيْن، وأشبهوا حلم نائم، وكأنهم بعد أن ذهبوا، لم يكونوا يوماً ملء الأرض قُوّة وسلطانا! وانتهى حديثُهُ بذكر دارا ملكِ الفُرْسِ المغلوب، والاسكندر الذي هزمه، وكسرى آخر ملوكهم، ونبيّ الله سليمانَ الذي دانتْ له الأرضُ.

مغازي ضرب المثل:

1. الدفاع عن الإسلام ورسالته وإظهار تفوّقه على سائر الأديان، وبخاصّة أنّ المواجهة كانت بين المسلمين والنصارى المسيحيين، (نحن / الآخر).
2. استخلاص العبرة، وموعظة الناس، ليزهدوا في الحياة الدنيا، ويُقبلوا على الجهاد. ولكن لماذا اقتصر الشّاعرُ على ذكر مَنْ سبق الإسلام دون مَنْ جاء بعده؟

3. محاكاة حالة الأندلسيين التي كانوا يحبونها بحالة الأُمم البائدة في التناحر والتفرّق والعتوّ، ولذلك سيكون مصيرُهُمْ مصيرَ أولئك الطّغاة.

فالشاعر – إذن – لم ينظرْ إلى الواقع الأندلسيّ نظرة موضوعية مثل عدم توازن القُوى، وضعف المسلمين الاقتصادي ... ولكنّه أرجع ما حلّ بالمسلمين في الأندلس إلى عدم تعلّقهم بدينهم.

وانتقل الشاعر إلى الحديث عمّا أصابَ الأندلسَ من مصائبَ على يَدِ أعدائها، وصوّر أثر الحروب الصليبية التي دهمتِ الأندلسَ والمغربَ قبل أن تدهمَ المشرقَ. فقد دهى الجزيرةَ أمرٌ منكرٌ عظيم، انهار له الناسُ، وتداعى له "أُحُدٌ"، و"ثهلانُ". وكلّ هذا يعني فداحةَ الخطْبِ، وعجزَ النّاسِ أمامه.

وقد زاد الشاعرُ هذا المعنى توكيداً وإيحاءً باستعماله كلماتٍ رمزيّةً، لها أصداءٌ كامنةٌ في الذاكرة الجماعية. وهذه الألفاظ هي "الجزيرة" و"أُحُدٌ" و"ثهلان"، فما هي الأصداءُ الكامنةُ التي أثارها من استعماله تلك الكلماتِ؟

إنّ "الجزيرة" توحي بجزيرة العرب، وهذه تستدعي إيحاءاتٍ وارتباطاتٍ وإحساساتٍ: فهي مكان انطلاق الإسلام، وكانَتْ مأوى السَّلَفِ، ومنها جاء أغلبُ العرب إلى الأندلس، وتوحي بالحصار والغربة، وبارتباطها بالغرائب والعجائب كما نجد ذلك في بعض كتب التاريخ (مروج الذهب)، وبعض قصص العرب (ألف ليلة وليلة). فالجزيرة، إذن، لها تداعياتٌ لا توحي بكثير منها كلمة "أندلس"، ولذلك كثيراً ما كان يلجأ الشّعراء الأندلسيّون إلى التّعبير – في وقت المحنة – بكلمة الجزيرة.

وأما أُحُدٌ فقد نُسجَتْ حوله قصصٌ مليئةٌ بالمعاني، فهو في الجزيرة، وهو جبل يحبّه الرسولُ – صلى الله عليه وسلم –، وهو الذي وقعتْ فيه الواقعةُ المشهورةُ، و"ثهلان" جَبَلٌ بالجزيرة، أيضاً، وقد شُهر بفخامته.

وقد اعتاد الشُرّاحُ أن يفسّروا إحالة الشعراء على هذه الجبال بالقوّة والفخامة، ولكنّهم لم يتفطّنوا إلى المعاني الرّمزيّة التي وراء هذه الإحالات. فهذان الجبلان لم ينهدّا لما دَهَى الجزيرة من دواهٍ، فقد بقيا في مكانهما، ولكنّ ما يرمزان إليه من معانٍ هو الذي انهدّ وانهار: دين الإسلام، والعروبة.

فقد قصد الشاعر، إذن، من إخباره إثارةَ الشّهامةِ والرّجولةِ، للنّفار إلى الجهاد والقتال واسترجاع المجد الغابر.

وتظهرُ رجاحةُ هذا التخريج الرمزيّ للأسماء والأعلام، وما استنتج منه، في البيت التالي:

أصابَها العَيْــنُ في الإسلام فارتزأتْ حتّى خَلَتْ منه أقطارٌ وبُلْــدانُ

فبؤرته تعبيرُ "في الإسلام"، وقد جاء موضّحاً لعموم البيت السابق:

دَهَى الجزيــرةَ أمْــرٌ لا عَزاءَ لَــهُ هَــوَى له أُحُدٌ وانْهَــدّ ثَهْلانُ

الذي يصوّرُ هَوْلَ الكارثة، ولو كانتِ العَيْنُ أصابَتِ الناسَ في أموالهم وأولادهم لكان الخَطْبُ سَهْلاً، وفي الله العزاءُ، وعليه الخلفُ، ولكنّها أصابَتِ الجوهرَ. ومِنْ ثَمّ، فإنّ النتيجة لا إسلام ولا إيمان، فالإصابةُ – إذن – في الإسلام وفي المُلْكِ معاً.

لقد بدأ الشّاعر يتحفّز لتنشيط الهمم، وإيقاظ النائمين، وشدّ العزائم موجّهاً وموبّخاً، لأنّ المواجهة صارَتْ فرضَ عَيْن، وبلغ الأَمْرُ غاية الخطورة، فلم يَبْقَ مجالٌ للمداراة والمواربة.

وشرع أبو البقاء الرّنديُّ يسردُ مسلسل المأساة، وذلك بتصوير سقوط المدن الأندلسيّة في يد العدوّ، وتحسّر الشاعر عليها، فقد سقطتِ المدنيةُ تِلْوَ المدينة، وكأنّها

في سباق إلى الهاوية. فمسلسل المأساة يوكّده: بلنسية، ومرسية، وشاطبة، وجيّان، وقرطبة، وحمص، فسقوط كلّ مدينة من هذه المدن كان إحدى حَلَقاتِ ذلك المسلسل الدامي الحزين، بَيْدَ أنّ أبا البقاءِ لم يُراعِ التسلسلَ الزمنيّ. فبلنسية سقطتْ سنة 637هـ، ومرسية سنة 662هـ، وشاطبة سنة 645هـ، ولكنّ حكاية حوادث المسلسل ليستْ من النوع السّردي التاريخي المعروف، الذي مضى وانقضى، وإنّما هي حوادثُ ما زالتْ حيّةً، بعضها فاتَ، وبعضُها مُقْبِلٌ.

وأخذ الشاعر بتفصيل ما امتاز به بعضُ الأمصار السّاقطة في يَدِ النصارى:

وأيــن قرطبةٌ دارُ العلوم فَكَــمْ مــن عالمٍ قد سَمَا فيها لَهُ شانُ؟!

فلم تسقطْ تلكَ المدُنُ فحسب، وإنّما ذهب معها ما جسّم عَظَمَةَ تاريخ المسلمين بالأندلس. وقطْبُ رحى المدن الأندلسية هو "**قرطبة**"، فقد كانت قُطْبا بمعنييه اللغويّ والاصطلاحي الصّوفي، وإذا انهار القطبُ انهدّ إليه كلّ شيء، فقد أصابها اضطرابٌ بعد هدوء وسكينة.

فقرطبة كانتْ عاصمةَ الدولة الأمويّة، وقد بقيتْ في ذهن الأندلسيين رمزاً لعزّتهم وقوّتهم، ولكن لماذا أغفل الشاعرُ الجانبَ السياسيّ واكتفى بالإشارة إلى الناحية العلمية؟ فهل معنى هذا أنّ البلاد المتقدّمة الذّكر خَلَتْ من كلّ علم؟ ليس هذا صحيحاً. وإنّما التنصيص، هنا، يفيد الأفضليةَ والتفوّقَ، وذلك ما يعنيه تركيب "دار العلوم" فلفظ الجمع يدلّ على أنّ قرطبةَ كانتْ فيها أنواعٌ منوّعةٌ من العلم، وكان كلّ واحدٍ يجدُ فيها ضالته، وما يرغبُ فيه من علم وفنّ، ومن ثمّة فهي قطْبٌ سياسيّ، وقطْبٌ علميّ يجذب إلى مركزه الأقاليم.

وقد ذكر الشاعر المكان بصفة دقيقة، كما ذكر الإنسانَ، وإنْ لم يحدّدْه، وأغفلَ عنصر الزمان، الذي هو ملازم للمكان. ففي أيّ وقت كانت قطبا؟ أكانتْ في عصر الأمويين؟ ما في ذلك من شكّ.

ومَنْ هُمُ العُلماءُ الذين درسوا فيها، وسَمَا شأنُهم؟ لا يمكن حَصْرُهُمْ، فَهُمْ كُثْرٌ، ولذلك عبّر عنهم بـــ "كم الخبريّة". وقد جاءَتْ جواباً عن سؤال المخاطب أو اعتراضه على التّسليم بكوْن "قرطبة دار العلوم"، فأخبره ليتحقّق، بعد ذلك، من صدق كلامه أو كذبه، ولكنّ الشاعر يعلم أنّ شواهد التاريخ تصدّقه.

والطريف في أبي البقاء أنّه يذكر كلّ مدينةٍ بأَجلّ صفاتها، وأشهرِ معالمها، فإذا ما اشتهرتْ قرطبةُ بكونها دارَ العلوم، فإنّ **اشبيلية** شاع ذكرُها بنهرها الأعظم، وبقوّة مدّه وبالمنازه والبساتين والكروم.

ويبدو أنّ مقصد الشاعر هو إطراء كلّ المدن الأندلسية السّاقطة في يَدِ النّصارى والتّركيز على ما اشتُهرتْ به كلّ مدنية من سِمات، ومعنى هذا أنّ ما فُقِدَ يجمع بين المتعة الروحية والمتعة الجسدية.

وتظهر أفضليةُ "**حمص**" الأندلسيّة على غيرها من المدن المشرقية، في هذا المضمار، فأين حمص الشامية، وأين بَرَدى، وأين غوطة دمشق من شرف إشبيلية؟

ولكلّ ما تقدّم، فإننا نقرأ لكثير من الرواة القدماء وَصْفَهم لإشبيلية بأنها: "**مدينة اللهو والطرب**". وقد سار الشاعر في هذا الاتّجاه، فركّز على هذه الناحية.

وقد وقع مسلسلُ المأساةِ جميعُهُ في سياق الاستفهام المعنِّف السّاخر، وقد حذف الجوابَ، لأنّ الاستفهام ليس على الحقيقة، وإنّما هو استفهام بلاغيّ لا يحتاج إلى جواب، وهو – إذن – صرخةٌ مدوّيةٌ تعبّر عن انفعال عنيف يحسّ به الشاعر،

ويريد أن يهزّ به مشاعرَ غيره. وقد يهون كلُّ ما تقدّم لو أصابَ التّافِهَ الحقيرَ، ولكنّه أصابَ ما له خطرٌ وشأنٌ، وهو قواعدُ الإسلام:

قواعدٌ كُــنّ أركانَ البلادِ فمــا عسى البقاءُ إذا لم تَبْقَ أركانُ

والقواعد أُسس بناء، أو عقيدة، أو علم، والقواعد هذه تجعل الأذهانَ تتصرف إلى ما فعله إبراهيمُ وإسماعيلُ من رفع قواعدِ البيتِ ... ولكنّ هؤلاء الخلفَ فرّطوا فهدمتْ قواعدُ ظاهرة مشخصة في هذه الجزيرة (قرطبة، بلنسية ...) وهُدّم، بناءً على ذلك، ما ترمز إليه تلك القواعدُ، أي الدين الإسلامي، الذي كان قوّةً وركنا شديداً عاصماً من كلّ خطر يتهدّد. وهكذا فإنّ أركانا من البلاد ضاعتْ فضاعتْ أركانُ الإسلام لضياعها.

لقد عبّر الشاعر عن تجربته بأسلوب بليغ منفعل جادّ، لا نجد له مثيلاً فيما سبق من أبيات. وتظهر اللغةُ المجازيةُ في كثرة استعمال المجاز في هذا المقطع: بكاء الحنيفية، بكاء المحاريب، رثاء المنابر. وبهذا حطّم الحواجز بين الموجودات، فالجماد حيّ، والحيّ جماد، وهدفه من استعماله التعبيرَ عن شمولية المأساة: كلّ ما في الوجود يبكي ويرثي، فإذا ما بَكَتِ الجماداتُ فبالحريّ أن تبكيّ الأحياءُ وترثي.

وينطلق الشاعر إلى دعوة مَنْ وراءَ البحر، بقوله:

يا راكبينَ عتاقَ الخيلِ ضامرةً كأنّها – في مجال السّبق – عِقْبانُ

وبعد النداء الذي وجّهه الشاعرُ إلى المعنيين بالأمر مباشرة، والذين يكابدون حرّ المصائب التي تنزل بهم، توجّه بالنداء – الآن – إلى مَنْ وراءَ البحر لنجدة أهل الجزيرة. فقد كرّر تقنية الخطاب التي ابتدأ بها دعوته لأهل الأندلس، وهو النداء.

ويدعو إلى إغاثة المستضعفين، وإلى نَبْذِ التقاطع بين المسلمين، فالحرب ليست ضدَّ الأندلسيين وَحْدَهُمْ، ولكنها شاملة (وقد صَدَقَ ظَنُّ الشاعر حين هاجم الأسبانُ والبرتغالُ بلادَ المغربِ الكبير واحتلّوا أجزاءً كثيرةً منه بعد سقوط الأندلس). واستعمل الشاعرُ الأساليبَ الممكنةَ التي تجمع بين الاستنجاد والعتاب، والتنبّه واللّوم. ولهذا كَثُرَتْ أدواتُ الحَضّ والاستفهام والتعجّب (ألا نفوس أَبيّات، أعندكم نبأ؟، ماذا التقاطع، كم يستغيث ...).

وأنهى قصيدته بذكر جزءٍ آخَرَ من مأساةِ الأندلسيين، فَهُمُ انقلبوا من أصحاب دار كالملوك في ممالكهم وصاروا عبيداً للمحتلّ الشّرس، وأصابتْهم حَيْرَةُ الحَيْران وذلُّ الذليل وصَوّر واقعةً من وقائع اقتسام المسلمين باعتبارهم أَسْرى (علماً بأنهم كانوا يأخذون العهود والمواثيق قبل التسليم) وتحدّث عن أصواتِ بُكاء الباكين، والأم التي بيعَتْ لرجل وطفلها الذي كان من نصيب رجلٍ آخَرَ، والفتاة الكريمة المصونة التي وقعتْ في سهم عِلْجٍ من عُلوج العدوّ.

وفي البيت الأخير من الأسى ما يوضّح هَوْلَ الكارثة في نفسه، وفيه من الحزن ما لا تكفي الكلماتُ لوصفه، وفيه تحريضٌ خفيّ بعد ذلك الاستنجاد الصريح.

وتُعَدُّ قصيدةُ الرُّنديّ من أشهرِ قصائدِ الأندلسيين في الأشعار الجهادية، والمتعلّقة برثاء المدن الضائعة.

وتسيطر على القصيدة العاطفةُ الجامحةُ، ويَشيعُ فيها صِدْقُ التأثّر وحرارةُ الانفعالِ وروعَةُ الحماسةِ الدينية والوطنية.

ولُغةُ الشّاعر – في القصيدة – لغةٌ معبّرةٌ. والألفاظُ الأساسيةُ في التعبير عن أفكار الموضوع من العبارات الموحِيَةِ الدالّة ذات التأثير المباشر في النفس.

ولا شكّ في أنّ الشاعر انشغل بتصوير الواقع القاسي وبالحماسة الجامحة، والعبارة الطَنّانة عن التنميق البديعيّ، وهو ابتعد – أيضاً – عن الإسراف في التصوير وأدواته (من التشبيهات والاستعارات وغيرها.